﴿..أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ..﴾

مقدِّماتُ الرِّدّة ظهرَتْ في أُحُد

الشّيخ عليّ كوراني

أرشدَ القرآنُ الكريم، الّذي هو كتابُ هداية للبشريّة، إلى أنّ هناك انقلاباً سيحصل بعد وفاة النّبيّ صلّى الله عليه وآله، وأنّ مقدِّمات هذا الانقلاب، أو الارتداد إلى الجاهليّة، ترجعُ إلى ما حصل في معركة «أُحُد»، ولاحقاً في معركة «الأحزاب»، وأخيراً في «حجّة الوداع».

ما يلي، مختصرٌ لقراءة في دلالات آية الانقلاب على الأعقاب من سورة «آل عمران»، ورد في كتاب (جواهر التّاريخ) لسماحة العلّامة الشّيخ عليّ كوراني.

قال اللهُ تعالى في سورة آل عمران: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ آل عمران:١٤٢-١٤٤.

هذه ثلاثُ آياتٍ من أربعين آية نزلت في معركة أُحُد، من الآية ١٣٩ إلى الآية ١٧٩ من سورة آل عمران، يوم افتُضِح الصّحابة وهربوا! بعضُهم عَدْواً متسلّقين جبلَ أُحُد، وبعضهم ركضاً إلى المدينة! تاركين النّبيّ ﷺ لِسيوفِ قريشٍ ورماحها! ولم يَثبُتْ معه ﷺ إلّا أمير المؤمنين عليٌّ عليه السّلام، وأبو دُجانة الأنصاريّ، ونسيبة بنت كعب!

واغتَنَمت قريشٌ فرصةَ فرارِ الصّحابة! فركّزَت حَمَلاتِها لقتلِ النّبيّ ﷺ، وعليٌّ عليه السّلام يردُّها الواحدةَ تلوَ الأخرى! وقد قاتل النّبيُّ ﷺ في أوّل الأمر قتالاً شديداً، رمياً بالقوس، وضرباً بالسّيف، وطعناً بالرّمح، ثمّ عملَ بِأمرِ ربِّه فانتهى إلى صخرةٍ فاستَتَرَ بها لِيَتّقيَ بها من سِهام المُشركين، فلمْ يَلبثْ أبو دجانة إلّا يسيراً حتّى أُثخِن بالجراح، وعليٌّ عليه السّلام لا يُبارزُ فارساً ولا راجلاً إلّا قتلَه اللهُ على يدَيه حتّى انقَطَع سيفُه، فأعطاه رسول الله ﷺ ذا الفقار، وكانت تأتي الحملةُ وأمامها فوجُ الرّماة، أو الفرسان، فيحملُ عليهم عليٌّ عليه السّلام، ويشقُّ صفوفَهم ويَقتلُ قائدَهم، فينهزمون!

كان جيشُ المسلمين في معركةِ أُحُدٍ نحو ألف مقاتل، والمشركون نحو ثلاثة آلاف، وقد انتَصَر المسلمون أوّلَ الأمر، لكنّهم عَصوا النّبيَّ ﷺ وتَركوا مواضِعَهم ورَكضوا لِيَجمعوا الغنائم، فاغتَنَم الفرصةَ خالدُ بن الوليد وباغَتَ المسلمين فالتفَّ عليهم مِن خلفهم، وحَمَلَ ابن قَميئة على النّبيّ ﷺ ووَصَل إليه بضربةٍ خفيفةٍ فتَخيَّل أنّه قَتَلَه، وصاح المشركون وإبليسُهم: قُتِل محمّد! فانهَزَمَ الصّحابةُ وصدَّقوا الخبر! وظهر نفاقُ بعضِهم، فنادى: «أَلا إنّ محمّداً قد قُتل فارجعوا إلى دينِكُم الأوّل»! واجتمع الفارُّون على الجبل عند صخرةٍ، وقرَّروا أن يُوَسِّطوا ابنَ أبي سلول، رئيسَ المنافقين في المدينة، فيأخذ لهم الأمانَ من أبي سفيان!

ثلاثُ مسائل في تفسيرِ آيةِ الانقلاب

المسألة الأولى: في أقسام المسلمين في الآيات الأربعين من سورة آل عمران، وأهمّ صفاتهم.

القسم الأوّل: الطّيّبون، المجاهدون، المقاتلون، الثّابتون، المُحسنون، الرّبّيّون، الّذين هم الأعلَون، لا يَهِنون ولا يَحزنون.

القسم الثّاني: المنافقون، الّذين تخلّفوا عن المعركة بقيادة عبد الله بن أبي سلول. ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ..﴾ آل عمران:١٦٨.

القسم الثّالث: المؤمنون أصحاب الذُّنوب، الّذين استَزَلّهم الشّيطان ببعض ذنوبهم فهَربوا وتَركوا النّبيَّ ﷺ لِسيوف قريش!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ آل عمران:١٥٥.

القسم الرّابع: طائفة الفارّين المُنافقين الّذين لم يغتمّوا لِفرارِهم، ولم يُنزِل اللهُ عليهم النُّعاس [النُّعاس بمعنى السّكينة، وقد ورد التّعبير في صدر الآية ١٥٤]: ﴿..وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ آل عمران:١٥٤. وهؤلاء هم المعنيُّون بآيةِ الانقلاب، وقد ذكرَ اللهُ تعالى لهم خمسَ صفات، وهي غير الصّفات السّلبيّة الّتي تُفهم من مقارنتِهم بالمؤمنين:

١- أنّهم طائفةٌ مستقلّةٌ في مقابل طائفةِ المؤمنين، وإنِ اشتركوا معهم في الفرار.

٢- أنَّ ظنَّهم باللهِ تعالى ظنٌّ جاهليٌّ، لأنّ نظرتَهم إلى الله تعالى وعقيدتَهم به ما زالت جاهليّة، أو أقرب إلى الجاهليّة منها إلى الإسلام، فهم يتعاملون مع الله تعالى بمعادلاتِ النّفع الدّنيويّ، كما يتعاملُ المشركون مع أصنامِهم، وكما يتعاملُ اليهود مع معبودِهم! ولا يعتقدون بهَيمنتِه وقدرتِه وحكمتِه وإدارتِه لرسوله ﷺ، للوصول به إلى الهدف الصّحيح كما يعتقد الرّسول ﷺ والمؤمنون!

٣- أنّهم يَرَون أنّ قيادتهم هم أفضل من قيادة النّبيّ ﷺ وقيادة الله تعالى، فبمجرّد أنْ رَأَوا رَجَحان كفّة المشركين في المعركة، أنْحَوْا باللّائمةِ على النّبيّ ﷺ وعلى ربِّه سبحانه!

٤- أنّهم منافقون يُظهرون للنّبيّ ﷺ أنّهم مؤمنون باللهِ وبرسولِه، ولكنّهم كذّابون، فهم لا يسلِّمون بالأمرِ لله ورسولِه، بل يريدون أنْ يكونَ الأمرُ لهم، أو تكون لهم شراكةٌ فيه! ﴿..يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ..﴾ آل عمران:١٥٤! وقصدُهم بقولهم: ﴿..مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا..﴾ أي ما قُتل مَن قُتل من المسلمين في أُحُد! فَهُم مع نفاقهم يتكلّمون باسم المسلمين!

مجموعة صحابة (مهاجرين) قرشيّين، دعَوا النّاس إلى الرِّدَّة والكُفرِ علناً، بمجرّد أنْ شاعَت شائعةُ قتلِ النّبيِّ ﷺ!

وكلامُهم هذا قد يكون في الجبل أو في الطَّريق، أو بعد رجوعهم إلى المدينة وفي غياب النّبيّ ﷺ! وهو محاولةٌ خبيثةٌ لِتحريكِ المسلمين ضدّ النّبيّ ﷺ وتحميله مسؤوليّة هزيمة أُحُد وقَتْلِ مَن قُتِل فيها، ومطلبهم أنْ يكونَ لهُم من الأمرِ شيء، فلا يتصرّف النّبيُّ ﷺ في المواجهات القادمة بمفرده، بل تكون القيادة جماعيّة! وهم في مَنطقِهم هذا يتناغمون مع منطقِ ابن أبي سلول وحزبِه الّذين تخلّفوا عن أُحُد، ممّا يشير الى أنّ لهم علاقةً معهم!

٥- أنّ مشكلتَهم عبادةُ ذواتِهم واهتمامُهم بها، وعدم الاهتمام بأمر الإسلام والمسلمين! ﴿..وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ..﴾ آل عمران:١٥٤. صدَّقوا شائعةَ قتلِ النّبيّ ﷺ واستَعدُّوا لإعلان توبتِهم لأبي سفيان!

وتفاجئُك نصوصٌ خطيرةٌ تَنصُّ على أنَّ مجموعة صحابة (مهاجرين) قرشيّين، دعَوا النّاس إلى الرِّدَّة والكُفرِ علناً، بمجرّد أنْ شاعَت شائعةُ قتلِ النّبيِّ ﷺ! وذلك بعد جولةِ القتالِ الأولى، عندما التَفَّ المشركون على المسلمين وفاجَؤوهم من ورائهم وقَتلوا منهم، وأشاعوا أنّهم قَتلوا النّبيَّ ﷺ!

ويَنصُّ بعضُها على أنّ أحدهم وَقَف على تلٍّ يدعو المنهزمين إلى الرُّجوع إلى دِينِهم الأوّل والتّسليم لأبي سفيان قبل أن يأتي القرشيُّون ويقتلوهم! وأنّه عقَّبَ كلامَه هذا بقوله: «إنّهم لَعشائرُنا وإخوانُنا»!

وأخرَجَ ابنُ جرير، عن ابن جريج قال: «قال أهلُ المرض والارتياب والنّفاق حين فرّ النّاسُ عن النّبيّ ﷺ: قد قُتل

محمَّد، فالحَقوا بدِينكُم الأوّل! فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ..﴾ آل عمران: ١٤٤».

المسألة الثّانية: المُنقلبون في معركة الخندق وحجّة الوداع.

نلاحظ أنّ صفات المُنقلِبين في أُحُد في السّنة الثّانية للهجرة، بَقِيَتْ ثابتةً لهم في معركة الأحزاب في السّنة الخامسة للهجرة، وكذلك في حجّة الوداع في السّنة العاشرة للهجرة. ففي الآية العاشرة حتّى السّابعة عشرة من سورة «الأحزاب» تَجد وحدة الخيوط وأقسام المسلمين! فالثّابتون المُحسنون الرّبّانيّون قلّة، والضّعفاء كثرة، والمنافقون ناشطون، ولا نقصدُ بهم حزبَ ابن أبي سلول، بل المنافقين المهاجرين المخلوطين بالمؤمنين! فالّذين قال اللهُ عنهم في معركة أحُد: ﴿..وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ..﴾، هم أنفسهم الّذين قال الله عنهم في معركة الأحزاب: ﴿..وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ الأحزاب:١٠.

ومرضى القلوب في أحُد الّذين فرّوا إلى الجبل وقالوا: «لو كان نبيّاً ما قُتِل»، هم المنافقون الّذين قال الله عنهم في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ الأحزاب:١٢.

والّذين قال الله تعالى لهم في أُحُد: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ آل عمران:١٤٣، هم الّذين قال الله عنهم هنا: ﴿..فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ..﴾ الأحزاب:١٩.

والّذين ثَبتوا في أُحُد فقال الله عنهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ آل عمران:١٤٦، هم الّذين قال الله عنهم هنا: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الأحزاب:٢٣-٢٤.

ونفسُ الخيوط والخطوط والشّخصيات تَجدها في السّنة العاشرة للهجرة، في سورة «المائدة»، سورة حجّة الوداع، وهي آخِر سورة نزلت من القرآن! [أنظر الآيات: ٤١ إلى ١١٥، لا سيّما ٥١ إلى ٥٤، ٦١، ٨١]

مرضى القلوب في «أُحُد» الّذين فرّوا إلى الجبل وقالوا: «لو كان نبيّاً ما قُتِل»، هم المنافقون الّذين قال الله عنهم في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾

المسألة الثّالثة: هل أنّ آية الانقلاب تحذيرٌ، أم إخبارٌ بوقوعه؟

تقول الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

قد يُقال: إنّ الآية ليست أكثرَ من استفهامٍ إنكاريٍّ، فهي جملة شرطيّة استفهاميّة، لا تدلّ على وقوع شرطها وجزائها!

فيُقال [في الجواب]: نعم هي جملة فَرَضيّة، لكنَّ المتكلّم هو الله تعالى والفَرْضُ منه سبحانه له دلالةٌ، وهو يدلّ هنا على أنّ انقلابهم مُحتَملُ الوقوع، أمّا وقوعه بالفعل فقد تكفّلت به السّنّة والتّاريخ! على أنّ في الآية دلالةً أكثر من الشّرطيّة في قوله تعالى: ﴿..وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، حيث قسَّم الأُمَّةَ بعد النّبيِّ ﷺ إلى مُنقلِبين على أعقابهم وشاكِرين على ما أصابَهم!

وقد يُجاب: إنّ احتمالَ الوقوعِ احتمالٌ عقليٌّ مجرّد، كاحتمالِ أن يكفر الأنبياء والرّسل عليهم السلام كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الزمر:٦٥، فتحذيراتُ الأنبياء عليهم السّلام لا تدلّ على وقوع الشّرط منهم، فكذلك تحذيراتُ المؤمنين من الرِّدَّة.

والجواب: أنّ الدّليل الخارجيّ دلَّ على أنّ هذا الاحتمال في الأنبياء عليهم السّلام لن يتحقّق لنبوّتهم وعصمتِهم، أمّا في حقّ غيرهم فيبقى احتمالاً عاديّاً! ولذا لم يكتفِ بفرضيّة الانقلاب في الآية، بل قسَّم الأُمَّةَ إلى منقلِبين على أعقابهم، وشاكِرين، ووعَد الشّاكرين بجزاءٍ جميلٍ!

موجز في التّفسير

سورةُ «الدّخان»

إعداد : سليمان بيضون

*** السُّورة الرّابعة والأربعون في ترتيب سُوَر المُصحف الشّريف، نزلتْ بعد سورة «الزُّخْرُف».**
*** آياتُها تسعٌ وخمسون، وهي مكّيّة، مَن قرأها في فرائضه ونوافله بعثَه الله من الآمنين يوم القيامة، وأظلّه تحت ظلِّ عرشه، وحاسَبَه حساباً يسيراً، وأُعطي كتابه بيمينه، ويتأكّد استحبابُ قراءتها يوم الجمعة وليلتها.**
*** سُمِّيتْ بـ «الدّخان» لقوله عزّ وجلّ ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ في الآية العاشرة منها.**

سورةُ الدّخان خامسُ «الحَواميم السّبع»، وهي سُوَرٌ متتالية نزلت جميعُها في مكّة المكرّمة، تبدأ بقوله تعالى ﴿حمٓ﴾، وهي: غافر (أو المؤمن)، وفُصّلت، والشّورى، والزّخرف، والدّخان، والجاثية، والأحقاف. وقد ورد عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله قولُه: **«الحواميمُ سَبع، وأبوابُ جهنَّم سبع، تَجيء كلّ «حاميم» منها فتقف على بابٍ من هذه الأبواب، تقول: أللّهمّ لا تُدخِل من هذا الباب مَن كان يؤمنُ بي ويقرأُني».**

هدف السُّورة

«تفسير الميزان» [بتصرّف]: يتلخّصُ غرضُ السّورة في إنذارِ المشكّكين في القرآن الكريم بعذابِ الدّنيا وعذاب الآخرة، وقد سِيقَ بيانُ ذلك بأنّه كتابٌ مُبينٌ نازلٌ من عند الله على مَن أرسله نذيراً إلى النّاس، وقد نزل القرآنُ رحمةً منه تعالى لعباده خيرَ نزولٍ في ليلةِ القدر الّتي فيها يُفرقُ كلُّ أمرٍ حكيم. غير أنَّ النّاسَ، وهم الكفّار، ارتابوا فيه لاعبين مشكّكين، وسَيغشاهم أليمُ عذابِ الدُّنيا، ثمّ يرجعون إلى ربِّهم فيَنتقمُ منهم -بعد فصل القضاء- بعذابٍ خالد. ثمّ يذكرُ الله تعالى لهم تنظيراً لأوّل الوعيدَين [عذاب الدّنيا] قصّةَ إرسال موسى عليه السّلام إلى فرعون لاستنقاذ بني إسرائيل، وتكذيبِ قومِ فرعون إيّاه، ثمّ إغراقِهم نكالاً منه تعالى. ثمّ يذكر إنكارَهم لِثاني الوعيدَين، وهو الرُّجوع إلى الله في يومِ الفصل، فيُقيم الحُجّةَ على أنّه آتٍ لا محالة، ثمّ يذكر طرفاً من أخباره وما سيجري فيه على المجرمين ويصيبُهم من ألوان عذابه، وما سيُثاب به المتّقون من حياةٍ طيّبةٍ ومقامٍ كريم.

محتوى السّورة

«تفسير الأمثل» [بتصرّف]: لمّا كانت سورةُ الدّخان من السُّور المكّيّة، فإنّها تتضمّنُ الأبحاثَ العامّة لتلك السّوَر، أي البحث حول المبدأ، والمعاد، والقرآن الكريم. وقد نُسجت آياتها ونُظّمت في هذا الباب تنظيماً تنزل معه ضرباتُها الحاسمة المُفزعة على القلوب الغافلة الذّاهلة عن ربّها، وتدعوها إلى الإيمان والتّقوى، والحقّ والعدالة. ويمكنُ تلخيص فصول هذه السّورة في سبعة:

١ - بداية السّورة بالحروف المقطّعة، ثمّ بيان عظَمة القرآن، مع تبيانِ نزوله في ليلة القدر أوّل مرّة.

٢ - تتحدّث السّورةُ في الفصل الثّاني عن التّوحيد ووحدانيّة الله سبحانه، وبيان بعض مظاهر عظَمتِه تعالى في عالم الوجود.

٣ - يتحدّث هذا القسم عن مصير الكفّار وعاقبتِهم، وأنواع العقوبات الأليمة الّتي نزلت وستنزل بهم.

٤ - تتحدّث السُّورة في فصلٍ آخَر مع هؤلاء الغافلين، من أجل إيقاظِهم، عن قصّة النّبيّ موسى عليه السّلام وبني إسرائيل مع قوم فرعون، وهزيمة الأخيرين وهلاكِهم وفنائهم.

٥ - تشكّلُ مسألة القيامة وأنواع العذاب الأليم الّذي سيُصيبُ أصحابَ الجحيم، وكذلك المثوبات العظيمة الّتي تسرّ الرُّوح، والّتي سينالها المتّقون، فصلاً آخَر من آيات سورة الدّخان.

٦ - من المواضيع الأُخَر الّتي طُرحت في هذه السّورة المباركة موضوعُ الغاية من الخَلْق، وعدم كَوْنه عَبَثاً ولعِباً.

٧ - أخيراً، تنتهي السّورة ببيان أنّ الله تعالى يسّر لعباده فهم الحقائق القرآنيّة من خلال أقوال رسول الله ﷺ ومواعظه النّبويّة.

ثوابُ تلاوتها

«تفسير مجمع البيان»: عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله: «مَن قرأ سورة الدّخان ليلةَ الجمعة ويومَ الجمعة بنى اللهُ له بيتاً في الجنّة».

* وعنه صلّى الله عليه وآله: «مَن قَرأ سُورة الدُّخان في ليلةٍ، أصبحَ يَستغفرُ لهُ سبعون ألف مَلَك».

** وعن الإمام الباقر عليه السّلام: «مَن قرأ سورة الدّخان في فرائِضِه ونوافِلِه، بعثَهُ اللهُ من الآمِنين يوم القيامة، وأظلَّهُ تحت ظلّ عرشِه، وحاسَبَهُ حساباً يسيراً، وأُعطيَ كتابَه بِيمينِه».

تفسيرُ آياتٍ منها

بعد ذكر الآية الكريمة، نوردُ ما رُويَ من الحديث الشّريف في تفسيرها، نقلاً عن (تفسير نور الثّقلين) للمحدّث الشّيخ عبد عليّ الحويزيّ رضوان الله عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ..﴾ الدّخان:٣.

* الإمام الباقر عليه السّلام: «[هي] ليلةُ القدر، وهي في كلّ سنةٍ في شهرِ رمضان في العَشرِ الأواخِر، فلم ينزل القرآنُ إلّا في ليلةِ القدر».

** وعنه عليه السّلام: «لا تَخفى علينا ليلةُ القدر، إنّ الملائكةَ يطوفون بنا فيها».

قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ الدخان:٤

* الإمام الباقر عليه السّلام: «يقدَّرُ في ليلةِ القدر كلُّ شيءٍ يكون في تلك السّنة إلى مثلِها من قابل [العام التّالي]، خيرٍ وشرّ، وطاعةٍ ومعصية، ومولودٍ، وأجَلٍ، ورِزقٍ، فما قُدِّر في تلك السّنة وقُضي فهو المحتوم، ولله تعالى فيه المَشِيَّة [المشيئة]».

** الإمام الصّادق عليه السّلام: «إذا كانت ليلةُ القدر وفيها يُفرَق كلُّ أمرٍ حكيمٍ، نادى منادٍ في تلك اللّيلة من بطنان العرش [وَسَطِه]: إنَّ اللهَ تعالى قد غَفَر لِمَن أتى قبرَ الحسين عليه السّلام في هذه اللّيلة».

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ..﴾ الدخان:٢٩

* الإمام الصّادق عليه السّلام: «بَكَتِ السّماءُ على يحيى بن زكريّا وعلى الحسين بن عليّ عليهما السّلام أربعين صباحاً «..» كانت تطلُع حمراءَ وتغيبُ حمراء».

** وعنه عليه السّلام: «إذا ماتَ المؤمنُ بَكَت عليه بِقاعُ الأرضِ الّتي كان يعبدُ اللهَ عزَّ وجلَّ فيها، والبابُ الّذي كان يصعدُ منه عملُه، وموضعُ سجودِه».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الدخان:٣٢

رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إنّ اللهَ عزَّ وجلَّ اختارنا، معاشرَ آل محمّدٍ، واختار النّبيّين، واختارَ الملائكةَ المقرّبين، وما اختارَهُم إلّا على علمٍ منه بهم أنّهم لا يُواقِعون ما يَخرجونَ به عن ولايتِه، وينقطعون به عن عِصمتِه..».

قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ .. ﴾ الدخان:٣٧

* رسول الله صلّى الله عليه وآله: «لا تَسبّوا تُبّعاً فإنّه كان قد أسلم».

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ..﴾ الدّخان:٤١-٤٢.

* عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه قال لأبي بصير: «يا أبا محمّد! والله ما استَثْنى اللهُ عزَّ ذكرُه بأحدٍ من أوصياءِ الأنبياء ولا أتباعِهم ما خلا أمير المؤمنين وشيعتِه، فقال في كتابه وقولُه الحقّ: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ..﴾ يعني بذلك عليّاً عليه السّلام وشيعتَه».

** وعنه عليه السّلام: «نحن والله الّذي استَثْنى الله، فكنّا نُغني عنهم».

قوله تعالى: ﴿.. وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ الدخان:٥٤.

* رسول الله صلّى الله عليه وآله: «الّذي يسقطُ من المائدة مُهورُ الحورِ العِين».

** الإمام الباقر عليه السلام: «إذا دخلَ أهلُ الجنّةِ الجنّةَ وأهلُ النّارِ النّارَ، بَعَثَ ربُّ العزّة عليّاً عليه السّلام، فأنزلَهُم منازلَهُم من الجنّة فزوّجَهم، فعليٌّ واللهِ [هو] الذي يزوّجُ أهلَ الجنّة في الجنّة، وما ذاك إلى أحدٍ غيرِه، كرامةً من الله عزَّ ذكرُه، وفضلاً فضّله اللهُ ومَنَّ به عليه..».